

مداخلة المشاركة في

الملتقى الدولي: عالمية اللغة العربية وأثرها في التواصل الحضاري

تحت شعار

لغتنا هويتنا

-اسم ولقب الباحثة: سوعاد بن معمر.

-الوظيفة: أستاذة محاضرة*ب*

-الدرجة العلمية: دكتوراه.

عنوان المداخلة البعد الحضاري للتشكل النسقي الثقافي في الخطاب الشعري المعاصر-أبو تمام لصلاح

عبد الصبور أنموذجا

تمهيد:

إنّ قراءة الأنساق الثقافية للنص الشعري تكشف عن منطلق الفكر داخل النص، إذ تنطلق من الخلفية الثقافية للنص مروراً بتأويل مقاصد المبدع والخطابات سواء كانت ظاهرة أو مضمرة، كما أنّها تسمو به إلى أبعاد حضارية تجعله حلقة وصل بين حوارات شتى، وهذا ما حاولنا تطبيقه في بحثنا الموسوم بـ: البعد الحضاري للتشكل النسقي الثقافي في الخطاب الشعري المعاصر-أبو تمام لصلاح عبد الصبور أنموذجا- إذ حاولنا استخراج أهمّ هذه الأنساق الثقافية وكشفها وذلك من خلال دراسته البعد الثقافي وكشف المخبوء الحضاري في القصيدة.

ومن اجل الإحاطة بجوانب الدراسة أقمنا خطة قد تتناسب مع موضوعه تمثلت في:

-مقدمة.

1. البعد الحضاري للنسق الثقافي وماهية النسق الثقافي

2- البعد الحضاري لنسق المكان والشخصية في قصيدة(أبو تمام) لصلاح عبد الصبور

- خلاصة.

1. البعد الحضاري للنسق الثقافي وماهية النسق الثقافي:

تعددت التعريفات التي تناولت مفهوم النسق وقراءته، انطلاقاً من أنه «انتظام بنيوي يتناغم فيما بينه ليولد نسقاً أعم وأشمل، نحو ما يصف المجتمع على أنه نسق اجتماعي عام ينتج عنه مجموعة أنساق فرعية انتظمت معه وشكلته، فتولد عنه نسق سياسي آخر اقتصادي وعلمي وثقافي، تنسج علاقاتها فيما بينها في مسافات متباعدة ومتداخلة»⁽¹⁾.

ولعل مفهوم الانتظام أو النظام البنيوي يجعل النسق أعم وأشمل من البنية إذا اشتغلت عليه المناهج النقدية الأخرى ولا سيما المعاصرة، ومن ثمة يصبح النسق مغلقاً من جهة البنيوية الصورية ومفتوحاً من جهة المناهج الأخرى نحو السميائية والتأويليات المعاصرة وتبعاً للتصورات التي تقدمها القراءة للنسق تتحدد طبيعته⁽²⁾.

والحقيقة أن عملية الانفتاح للنسق مكنته من إنشاء روابط ثقافية واجتماعية منسجمة قابلة للانتقال من جيل إلى جيل، أو من وسط إلى وسط في ظل تفاعل فكري مرن جمع بين مختلف المعارف والفنون والأخلاق والمعتقدات واللغة.

ومن زاوية علاقة النسق بالثقافة نقل "ليني شتراوس هذا المصطلح إلى الحقل الثقافي في دراسته الأنتروبولوجيا البنيوية 1957 مؤكداً على وجود كلي أو شامل وعالمي سابق على الأنساق أو الأنظمة الفردية للنصوص، فظاهرة اللغة والثقافة ذات طبيعة واحدة الثقافة، بينما اقترح "ايكو" مصطلح الوحدة الثقافية؛ وهي أي شيء يمكن أن يعرف ثقافياً توجساً بالشر خيالاً، هلوسة، فكرة، ونظر "ايكو" إلى الوحدة الثقافية بوصفها وحدة دلالية سميائية مدججة في نظام، وقد تتجاوز هذا النظام إلى التفاعل بين ثقافتين⁽³⁾.

محمد مفتاح التشابه والاختلاف ، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1996، ص 156-157.¹

أحمد يوسف، القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة ، الدار العربية للعلوم، دط، 2007، ص 116.²

ضياء الكعبي، السرد العربي القديم، الأنساق الثقافية واشكالية التأويل، ص 21.³

والمتبع لهذا التعريف الجامع بين النسق والثقافة في إطار انتروبولوجي يجد أن النسق الثقافي وحدة ثقافية دالة تتفاعل فيها مختلف العلاقات والأفكار، والنظم، والإيماءات ثم تتفكك ضمن ظروف تاريخية و انتروبولوجيا تُكسب المعرفة أبعادا وقرءات تأويلية تتجلى فيها رؤية المتلقي الناقد.

وعند التفصيل في ماهية النسق الثقافي نلغي " الغدامي " كاشفا لنا حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أفتحة بكتابه(النقد الثقافي)، وأهم حيلة يركز عليها هي الحيلة الجمالية، ومنه تتحدد الوظيفة النسقية من حيث (1) :

-اشتمالها على نسقين يحدثان في آن واحد، وفي نص² واحدة، بحيث يكون المضمير منهما نقيضا ومضادا للظاهر.

- يشترط في النص الجمالية المستهلكة مع توفر الجماهيرية التي تحظى بمقروئية عريضة، وذلك لرؤية ما للأنساق من فعل عمومي ضارب في الذهن الاجتماعي والثقافي.

ومما يستنتج من حقيقة الوظيفة النسقية للنسق الثقافي هو جمعها بين المدرسة البنيوية في ثنائية الدال الظاهر والمدلول المضمير، وبين نظرية التلقي الممثلة في الجماهيرية القارئة.

والشروط السابقة تقتضي إجرائيا قراءة النصوص والأنساق قراءة ثقافية خاصة بعدها حالة ثقافية، إضافة إلى حالته الأدبية الجمالية، ذلك أن دلالاته المضمرة ليست مصنوعة من مؤلف، ولكنها منغرس في الخطاب، مؤلفتها الثقافة ومستهلكوها جماهير اللغة من كتاب وقراء يتساوى في ذلك الصغير مع الكبير، والنساء مع الرجال، والمهمش مع المسود.

كما أن النسق ذو طبيعة سردية يتحرك في حبكة متقنة مقنعة بالجمالية اللغوية والبلاغية.

ويبدو أن السمة التاريخية الراسخة والغالبة التي تجعل الجمهور مندفعاً نحوها معبرة عن المضمير الجمعي في استجابتها السريعة، والتي تنبئ عن محرك يشبك الأطراف فيما بينها؛ نحو الأغاني والأزياء والعادات، والحكايات والأمثال، هي الأخرى من عناصر النسق الثقافي.

عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، لبنان ، بيروت، ط3،

2005 ، ص 79. 1)

من هنا كان الوعي الثقافي للقارئ ونموه الفكري الناضج والمعبر ضروريا في القراءة الثقافية للنص الأدبي، حيث يتم بواسطته الوقوف على الطريقة الإبداعية لدى المؤلف في نسج هذه الأنظمة نسجا استراتيجيا يعبر عن الوعي الجمعي الثقافي.

2. البعد الحضاري لنسق المكان والشخصية في قصيدة (أبو تمام) لصلاح عبد الصبور

أ. ملخص القصيدة:

إنّ هذه البداية السردية تقريرية إلى حدّ ما تخبرنا بحقيقة تاريخية وتفصل أحداثها وقعة عمورية المشهورة بين العرب والرّوم وأسباب هذه الوقعة وكيف استجاب الخليفة العباسي المعتصم بالله لاستغاثة امرأة (الأخت العربية) كانت هذه الاستجابة ليست بمثابة نجده فحسب، بل بمثابة دفاع عن الشرق العربي بصفة عامّة وعن عرض الأخت بصفة خاصة، وهي-أي القصيدة- إذ يتحدّى بها خصومة فإنّه أتجه بها اتّجاه الثائر على الواقع المرير لأمة أصابها العجز والهوان في الدّفاع عن شرفها وعرض أبنائها في طبرية ووهران كمثالين لما تتعرض له هذه الأمة من استباحة لعرضها من محتلين صليبيين متصهّنين جبينها المعتصم بجيشه لنصرة الأمة العربيّة بأكملها حتّى غدت هذه النصره خالدة في تاريخ أمته يتوارثها الجيل العربي من بعده ذكرًا لا تطيقًا.

ب.. نسق المكان:

حاز المكان على رعاية مُعْتَبَرَة لِإِسْتِنَادِهِ إِلَى الدَّورِ الفَعَّالِ فِي هَيْكَلَةِ قَصِيدَةِ مِمَّا يُهَيِّئُ للقارئ التّفاد إلى عمق التجربة، هكذا أخذ صلاح عبد الصبور ليكون أداة طيعة لديه فيملاً كلّ ثغرة من ثغرات القصيدة، لذا حاولنا متابعة دلالاته وإيجاءاته في قصيدة (أبو تمام) له.

يمنح الفضاء المكاني قدرًا معرفيًا للمتلقّي في فهم تحليلات الأمكنة داخل القصيدة، كما أنّ الربط بين مدلولاته يُتيح للقارئ تشكيل هيكل الفضاء بناءً على تعدّد وضعياته وأبعاده الأخلاقية والإبستمولوجية والاجتماعية، غاية منه إلى تكديس الأحداث اللامرئية في قصيدة صلاح عبد الصبور التي تتنوع فيها الأمكنة؛ إذ نجد منها ما دلّ على المدد نحو:

*عمورية: واحدة من أهم المدن البيزنطية في آسيا الصغرى وأهم حدث شهدته مدينة عمورية هو الفتح سنة (223هـ/838م)، من أبرز المعارك التي حدثت فيها تلك التي جرت بين المسلمين والبيزنطيين في عهد المعتصم بالله وكان سببها اعتداء الإمبراطور البيزنطي توفيل ميخائيل على بعض تفرج والحصون على حدود الدولة الإسلامية، وحين بلغ ما وقع للمسلمين في هذه المدن من صيحة تلك المرأة المسلمة المستنجدة بالمعتصم بالله الواقعة في أسر سجون الروم والقائلة (وا معتصماه) فأجابها وهو جالس على سريره (لييك لبيك) وجهز جيشاً ضخماً على أرسله على وجه السرعة لإنقاذ المسلمين ثم خرج بنفسه على رأس جيش كبير وفتح مدينة عمورية، وهي من أعظم المدن البيزنطية واستولى على ما بها من مغام وأموال كثيرة جداً.

أخذ المسلمون من عمورية أموالاً لا تُعدُّ فأمر المعتصم بعدها بإحراق ما بقي من ذلك هناك من مجانيق والدبابات وآلات حربٍ لكي لا تقوى بها البيزنطيون مرةً أخرى ثم انصرف المعتصم.

ولم يلفت هذا النصر اللسان العربي أو الشعر العربي إذ راح بعض الشعراء يخلدونه نظماً يشهد له التراث الشعري العربي وأشهرهم "أبو تمام" في قصيدته (زحف عربي ظافر)، وهي بداية خطابية عالية، ربما تتناسب مع الأصوات العالية التي كانت موجودة في مهرجان أبي تمام، الذي انعقد سنة 1960م، في دمشق وتلتقط النعمة القومية المناسبة التي تتناسب مع الشعور القومي الصاعد وتلمع إلى قصة المعتصم الذي نهض إلى فتح عمورية بعد أن بلغه صراخ المرأة التي صاحت باسمه، فانطلق كالإعصار الذي لم يتوقف إلا بعد فتح المدينة واستفادتها من الروم وتحقيق الانتصار الذي كتب فيه أبو تمام قصيدته الشهيرة:

قصيدة أبي تمام: قال يمدح أمير المؤمنين المعتصم بالله أبا اسحاق محمد بن مروان الرشيد

ويذكر فتح عمورية¹:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ * * * فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي * * * مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لِأَمْعَةٍ * * * بَيْنَ الْحَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهْبِ
أَيُّنَ الرِّوَايَةِ بَلَّ أَيْنَ التُّجُومِ وَمَا * * * صَاعُوه مِنْ زُخْرَفٍ فِيهَا وَمَنْ كَذِبِ
تَخْرُصًا وَأَحَادِيثًا مَلَقَةً * * * لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا عَرَبِ
عَجَائِبًا زَعَمُوا الْأَيَّامَ مُجْتَلَةً * * * عَنْهُمْ فِي صَفْرِ الْأَصْفَارِ أَوْ رَجَبِ
وَحَوْفُوا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءِ مُظْلِمَةٍ * * * إِذَا بَدَا الْكَوْكَبُ الْعَرَبِيُّ ذُو الذَّنْبِ
وَصَيَّرُوا الْأَبْرَجَ الْعُلْيَا مُرْتَبَةً * * * مَا كَانَ مُنْقَلِبًا أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ
يَقْضُونَ بِالْأَمْرِ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ * * * مَا دَارَ فِي فَلَكٍ مِنْهَا وَفِي قُطْبِ
لَوْ بَيَّتَتْ قَطًّا أَمْرًا قَبْلَ مَوْقِعِهِ * * * لَمْ تُخَفِ مَا حَلَبَ الْأَوْثَانَ وَالصُّلْبِ
فَتَّخِ الْفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ * * * نَظْمٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَشْرٌ مِنَ الْخُطْبِ
فَتَّخِ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ * * * وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْفُشْبِ

نظم الشاعر هذه القصيدة بعد النصر الذي حققه الخليفة العباسي المعتصم حينما فتح عمورية مسقط رأس الإمبراطور الروماني (تيوفل)، وكانت هذه المعركة بمثابة اعتداء إمبراطور الروم على بلده، (نبطرة) العربية، التي عاث فيها الروم فسادًا وقتلًا وتدميرًا وانتقامًا لما حلّ بتلك المرأة العربية نجد أنّ الشاعر سخر من المنجمين حين حدّروا المعتصم من فتح عمورية وأعد الشاعر في الأبيات على أن الحرب وحدها هي سبيل المجد والنصر والحقيقة.

مجد الشاعر القوّة وسخر من المنجمين، لقد رصف المنجمون وخوفوا من الاتجاه نحو عمورية وتحدّثوا عن أحداث جسام ستمخض عنها الأيام استمرّ الزحف يقوده الخليفة فحقّق النصر

¹ : أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، ديوانه، تقديم: عبد الحميد يونس، عبد الفتاح مصطفى، ميدان الأزهر، مصر،

وأبطل سيفه ما أرجفوا به وأثبت السيف أنه أصدق من كتبهم وأنّ حدّه قد ميز الحقّ من الباطل المفترى.

يقول الشاعر: بيض الصفائح لا سود الصحائف في متوهنّ جلاء الشكّ والريب لبياض السيف بعدا لظلام الشك الذي ألقوه على النفوس من خلال ما قرؤوه في أوراقهم وكتبهم السود التي تنقل كما يقولون عن الشهب والنجوم فما يكون لظلام الشك الذي يتسلل من هذه الصحف أن يثبت أمام لمعان السيوف وبياضه.

يسخر الشاعر ويستهزئ من المنجمين ويقول أين روايتهم بل أين تلك النجوم التي افترتكم عليها ونسبتم إليها ما أفكتموه من أكاذيب قدمتموها في عبارات منمقة خداعة لتخلعوا بدل القوة. يعبرّ الشاعر عن عظمة فتح عمورية ويصفه بفتح الفتوح من عظمة الفتح.

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب هذا الفتح العظيم تستبشر به السماء فتتلقاه متفتحة الأبواب وتبتهج الأرض.

يبرز الشاعر فرحته وإعجابه بفتح عمورية وتحقيق أماني المسلمين فهادوا فرحين منتصرين واصفًا الدمار الذي حلّ بمدينة عمورية بعد أن فتحها المعتصم حيث يقول فقد أوقعت بها وغادرتها مهذّمة، فر عنها أهلها فاستوصت ساحتها، تأكلها نيران، فذلت أمام سطوتها صلابة الصخر والخشب وحقق النصر بإرادة الله عزّ وجلّ واستطعت تدمير دولة الكفر لأنّه كان مع الله عزّ وجلّ ولو اعتمد الخليفة على غير الله لما تحقق هذا النصر المبين.

يدعو الشاعر للخليفة بالخير لأنّه بالفتح سينشر الإسلام ويعلي من قوته وشأنه.

وهنا تستدعي قصيدة صلاح عبد الصيور الموقف الذي يصل أبا تمام بالمعتصم في دلالة ماضي الانتصارات العربية، لافتة إلى ماضي الانتصارات ووقائع المعارك التي لم تحسم في وهران الجزائر أو طبرية فلسطين، وذلك لكي ينتقل عدوى الانتصار القديم إلى المعارك الحديثة ويتولد من

جديد زعيم عربي يستعيد صورة المعتصم كي يخلّص العرب المعاصرين من الأحزان نهائياً، ويشق العتمة كي يينغ نور الاستقلال من الاستعمار الفرنسي على وهران الجزائر، ومنها إلى كلّ مدينة عربيّة محتلة.

وهذا ما يتّضح من قصيدة ألقاها في مهرجان أبي تمام الذي أقيم في دمشق سنة 1960م، وحضره كبار الأدباء من أمثال العقاد رغم أنّ الشاعر لم يكن مدعواً إليه للخلاف الحاصل بين الشعراء المجددين والمحافظين فحضره بإمكانيات الخاصّة.

احتفت محافظة درعا بواحد من أبرز أعلامها الذين تبادلهم الفخر بالفخر فهو الشاعر "حبيب بن أوس الطائي" الملقب بـ"أبو تمام" شاعر الحماسة من خلال المهرجان الشعري تخليداً لذكراه في المركز الثقافي، ويعتبر من المهرجانات المتميزة، لتفعيل الحالة الثقافية في المحافظة لاسيما بعد عودة الأمن والاستقرار، ويستقطب حضوراً لافتاً على مستوى الشعراء المشتركين من أنحاء الوطن، افتتحت فعاليات المهرجان بتقديم مجموعة من الشعراء قصائد وخواطر شعريتهم منهم: صقر عليشي، جمال المصري، محمد الحريري وغيرهم.

إنّ المهرجان بمثابة رسالة للعالم بأنّ الوطن يتعافى ودوران عادت لتساهم بدورها الثقافي والوطني مؤكداً ضرورة العمل لرفع المستوى الثقافي للأجيال كون الثقافة بمثابة قناديل نور تضيء الفكر.

تستمر فعاليات المهرجان على مدى ثلاثة أيام تتضمن جلسات شعرية بمشاركة نخبة من الشعراء السوريين وأصبوحات شعرية وندوات فكرية وأدبية في المركز الثقافي درعا والصنمين.

وتضمّن فعاليات اليوم الأوّل عرض مسرحي بعنوان من "عمورية إلى تشرين" وعرض فني تراثي قدّمته فرقة درعا للفنون الشعبية، المهرجان حضره أكثر من خمسين شاعرًا عراقيًا وشعراء عرب وكان ناجحًا بكلّ تفاصيله التنظيمية والإدارية، وما شاهدته أنّ مجموعة رائعة من الشعراء الشباب كثيرًا ما نسمع عن مهرجانات شعرية كانت محطّات مهمة لبعض الشعراء العرب.

***وهران:** عاصمة الغرب الجزائري تُحيي كل سنة ذكرى تحرير وهران المرسى الكبير من الاحتلال الإسباني 1792م، لم يكن فتح وهران على يد الباي محمد الكبير حدث عاديًا لأنه ترك صدى عميقًا في المخيلة الاجتماعية لسكان الغرب الجزائري حيث فرض الباي محمد بن عثمان الحصار على الحامية العسكرية الإسبانية في وهران والمرسى الكبير ووقوع المفاوضات بين الداوي والإسبان إلى توقيع الصلح سنة 1785م، وكان الحصار الحقيقي بعد الزلزال الذي أصاب المدينة في أكتوبر 1790م، وفشله نتيجة وصول الإمداد الإسباني والفشل في خطة الحصار عودة الباي محمد الكبير إلى المقاومة ثم تنقله من جديد إلى وهران لإحكام حصارها الأخير إلى أن وافق الإسبان على الإجلاء.

مجزرة باريس عام 1961م، (ذكرى مظاهرات 17 أكتوبر) تشير إلى مذبح في باريس يوم 17 تشرين الأول أكتوبر 1961م، وخلال حرب الجزائر (1954-1962م) نُفذت بأمر من رئيس شرطة باريس "مورسي بابون" فهاجمت قوات الشرطة مظاهرة سلمية مكونة من 65000 جزائري، وأقرت الحكومة الفرنسية 40 حالة وفاة في عام 1998م، رغم أنّ هناك تقديرات تصل إلى 300 ولكن هذا الهجوم كان المصدر أو كما برهن المؤرخ "جاك لوك أيوندي"، الذي فاز في محاكمة.

وفي سنتي 1961م و1962م الأكثر دموية في تاريخ مدينة وهران إبان العهد الاستعماري ومجازر 28 فيفري 1962م، ومن كان منهم مجهول هويته كان هذا الاعتداء في قلب الحي العتيق "المدينة الجديدة" ومحاولته لتفنيذ سياسة إبعاد الجزائريين عن مدينة وهران فقد كان الحي الشعبي العريق "المدينة الجديدة" إبان الاستعمار يتميّز بالخصوصية الجزائرية، كونه ممنوعًا على الأوروبيين، ممّا جعل عملية استهدافه سهلةً كما تمّ اختيار التوقيت المناسب وذلك من قرب متاجر بيع الزلايب في شهر رمضان المبارك، وذلك لتكون الجريمة وصدائها بمعدلات كبيرة تخلف الرعب وسط قلوب الجزائريين.

*طبرية أو طبريا:

من أقدم المدن الفلسطينية حيث احتلت هذه من قبل الصليبيين بأمر "غودفري"، والذي قام بدوره بتهجير سكانها العرب وجعلها مركزا لإمارته بعد تحصينها بطريقة محكمة. حررت مدينة طبريا من يد الصليبيين في معركة حطين بقيادة صلاح عبد الصبور الأيوبي في عام 1187 ميلادي وعاد سكانها العرب إليها وبعد أعوام احتلها الصليبيون مرة أخرى واسترجعها المسلمون فمرت بكثير من الحروب مما أدى إلى تخريب الكثير من معالمها وآثارها ثم حل بالمدينة دمار هائل بسبب الزلزال الذي أصاب المدينة عام 1837م، وبعد وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني وجه اليهود أنظارهم إلى طبرية حيث بدأت أفواج اليهود بالتوافد والاستقرار فيها وتعتبر من أولى المناطق التي تدفق عليها موجات الهجرة اليهودية .

اختار الشاعر صلاح عبد الصبور المدن الثلاثة (عمورية، طبرية، وهران) رغم البعد الجغرافي الذي يمتد إلى آلاف الكيلومترات بين هذه المدن الثلاثة والتي توحى بالبعد بينها، لا أن المصير المشترك الذي يتشكل من العناصر التالية: وحدة اللغة، والتاريخ، والمقومات، والنفسية، والاجتماعية، والسياسية تجعل من هذا المصير نسقا متكاملًا ألقى البعد الجغرافي وصار بين هذه المدن تقاربا شعوريا وحدويا يشكل نسقا شعريا، ثقافيا، أدبيا، يدافع عن حق هذه المدن الثلاثة التي تتقاطع في المحنة والألم ثم تتباعد في النتيجة والواقع فعمورية تمثل الكرامة والانتصار أما طبرية ووهران يتجسد فيها الذل والانكسار في زمن الاحتلال.

ج. نسق الشخصيات: فخر واعتزاز بالماضي المجيد/خيبة أمل بالحاضر

استطاع صلاح عبد الصبور بلغته الفنية الخاصة وتجربته الشعرية أن يجعل لشخصياته التاريخية بقصيدته "أبو تمام" حياة دائمة تربط بين الماضي المجيد للعرب والحاضر التعيس لهم، وانتقاؤه لها لم يكن عبثا، فقد خلق سياقًا خاصًا به رغم قدمه إن صح القول إن الآلية التي صاغها بما جاءت عن سبل رمزية نسقية نسج شعريتها بإبداعه الخاص.

والناظر للسياق الذي خلقه الشاعر لهذه الشخصيات تجده في حلة جديدة وهي ميزة تميز بها شعراء القصيدة المعاصرة على غرار محمد أمل دنقل وبدر شاكر السياب وغيرهم كثير، هذا المزج الذي ينم عن اعتزازه وفخره ببطولات وانتصارات هذه الشخصيات نحو (أبو تمام، المعتصم بالله، السيف الثائر، الأخت العربية).

*أبو تمام :

شاعر الألوان والأضواء في اللغة العربية وهي ألوان وأضواء قائمة بل هو شاعر الرسم، والزخرف، والتنميق فقصائده حلي والأناقة الخالصة ولكن لا تظن أنه شاعر حسي أو أن زخرفة مادة وحس فقط بل إن زخرفة قبل كل شيء فكر وفلسفة وعقل، وكشف حقائق الحياة في أعماقها وأغوارها.

كان أبو تمام يعبر تعبيرا زخرفيا ولكنه تعبير يفضي بالإنسان إي فكر عميق ظهر في شكل زخرف أنيق، وإن الباحث ليعجب كيف استطاع أبو تمام أن ينهض بفنه إلى هذا المدى من التعبير عن الفكر والزخرف جميعا، بل إننا لا ندقق في التعبير فليس هناك من فارق عنده بين الفكر والزخرفة، إن الفكر نفسه يصبح زخرفا بزخرف به نماذجه وننظر إليه يستهل قصيدة عمورية على هذا النمط:

السَيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِّنَ الْكُتُبِ * * * فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لِأَسْوَدِ الصَّخَائِفِ فِي * * * مُثُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ

التي كانت أول ملاذ آوى إليه الشاعر صلاح عبد الصبور ليرجعنا إلى التاريخ الماضي المعتصم والتي تمام إلى الفعل والكلمة ومعا إلى القوة والفعل المتمثل في السيف وإلى قوة الكلمة المتمثلة في شعر أبي تمام فهو يؤكد من خلال رجوعه إلى قصيدة أبي تمام الفرق بين الماضي مجيد-وحاضر-مازال-تعيس، وقد وفق الشاعر توفيقا كبيرا في استحضار شخصية أبي تمام شعرا وشخصية طاف بنا عبد الصبور في عمورية وبغداد والمعتصم والأخت العربية التي استفاقت وقالت وا معتصماه، مما يستدعي أبا تمام وقصيدته المشهورة في مدح المعتصم أيضا إذن فالمقطع الأول كله يمثل استهلالا فنيا للقصيدة تخلق من بذرته جنين النص الذي ستكون ولادته بالمقاطع الثلاثة الأخيرة على أن هذه الاستهلال كبداية فنية تبقى جزءا عضويا لا يمكن فصله عن النص .

في عام 1961م، كانت المعركة محتدمة بين جيل الشباب من الشعراء المجددين وعلى رأسهم صلاح عبد الصبور وحجازي، وجيل القدماء وعلى رأسهم العقاد فضلا عن المعركة السياسية والحربية مع قوى الاستعمار الخارجي في شتى أنحاء الوطن العربي من شرقه إلى غربه وحدث في ذلك العام أن أقيم مهرجان أبي تمام في دمشق فاعترض رئيس لجنة الشعر بالمجلس

الأعلى للفنون والآداب على سفر عبد الصبور ورفيقه حجازي لحضور المهرجان، فما كان منهما إلا أن رفضا هذا الاعتراض والسفر بطريقة ما إلى دمشق لحضور مهرجان، غضب الشاعر صلاح عبد الصبور لقد كان غضبا شعريا فنيا إذا جاز القول، غضبا عاما، وثورة منحازة لكل المجددين ضد التقليديين، من هنا كان اختيار أبي تمام الشاعر المجدد لتكون القصيدة باسمه ويكون الانتماء له.

التزم عبد الصبور الشكل الجديد في بناء القصيدة فكان التحدي على طريقته وطبيعته الخاصة فيمكن للشعر الجديد أن يلامس بقوة قضايا الواقع فيحمل مضمونا قويا كما هو الحال عند كبار الشعراء في القديم والحديث أمثال أبي تمام.

لقد نجح عبد الصبور في هذا المقطع أن يستحضر لنا أبا تمام بشعره¹:

والسيف صادق في الغمد وطوبناه

وفتحنا بالكتب المروية

ليصور حزن أبي تمام وغضبه ومن ثم غضب الأبناء الشعراء وعلى رأسهم بالطبع شاعرنا

الملتزم بقضايا وطنه.

يومك لا سيقينا فرحًا

أو سيقيك رضا

التذكار ثقيل حملناه

ندمًا

والحسرة في وجهك بعد الأرقام... وأعوام

هنا كان الشاعر أبو تمام وعبد الصبور والابن أبو تمام فالأول يفتقد الرضا والثاني يفتقد

الفرح ومن ثم يصبو لقاء الجد أبي تمام عيد الأحران

ومن الأسباب التي دفعت بالشاعر إلى استحضار قصيدة أبي تمام دلالتان الماضي التي تحققت

نصرا جميلا لافتة إلى ماضي الانتصارات في واقع المعارك التي لم تحسم في الدول العربية ويخلص

العرب المعاصرين من الأحران نهائيا ويحقق الاستقلال لكل مدينة فأبا تمام بمثابة الشاعر الذي

يزخر قلمه بمعالجة الأمة العربية جمعاء بقصائده ونظمه جميل .

1. صلاح عبد الصبور، ديوان صلاح عبد الصبور، دار العودة، بيروت، ط، دت، ص 141-143.

*المعتصم بالله: السيف البغدادي الثائر

يتميز المعتصم بالله بقوته وشجاعته العربية، حتى قيل عنه إنه يصارع الأسود، كما أنه عرف بملكته الأدبية في الشعر وحسن الخطاب فالتاريخ يشهد له بإنجازاته العظيمة وهو يتولى الحكم، فقد شيد الكثير من العمران وساهم في بناء المساجد، ونحن لسنا بحاجة إلى ذكر هذه الإنجازات وسردها وهي كثيرة بقدر ما نحن بحاجة إلى تتبع آثاره في المجال الحربي وحكمته في قيادة الجيوش وسيادتها، وخاصة ذلك النصر الذي حققه بفتح عمورية لما استجاب لنداء أخت عربية استنجدت بنصرته، حيث وصلت أنباء انتصاراته البقاع حتى أصبح العدو يأخذ الحيلة والحذر خوفا من سيفه الثائر.

إن الذي يتمعن في قصيدة (أبو تمام) يلمس فخر واعتزاز بهذه الشخصية الذي يعلن عنه في خطاب شعري خارج عن دائرة الزمن والمكان فيقول :

من هذه الذاكرة التاريخية تستجلي لنا قوة ورباطة جأش الخليفة (المعتصم بالله)، والذي لم يذكره بهذا الاسم بل ساق له ألقابا أخرى، استحضرت غيابه نحو (البغدادي الثائر) ونحو (معتصماه). ليس عجبا أن يقف الشاعر "صلاح عبد الصبور" على هذه الشخصية القوية الحكيمة والتي ظلت خالدة بصنيعها اتجاه المرأة العربية ونخوتها وشرفها وعزتها، ولكن العجيب أن يستحضر الشاعر من هذا النص الغائب في ظل اضطراب سياسي تعيشه الأمة العربية، وكأن الشاعر يرثي حال العرب حاضرا التي أصبحت تفتقد لمثل هذه الشخصيات حكما، وقوة، ونخوة، وعزة هو خطاب تاريخي أضمر واقع العرب المستكين العاجز الحاضر، خطاب يحمل آمال وأحلام الشاعر في يقظة العرب من سياستهم، صوت ألهم شاعرية الشاعر للكشف عن نسق سياسي مرير ترجم حسرته وحيرته.

وينتقي الشاعر لقباً للمعتصم بالله وهو البغدادي الثائر وسيفه، سيف الحق، وسيف القوة، حيث ينقلنا بهذا اللقب إلى واقع بطولة عربية من أرض بغداد العريقة بمجدها وثورة رجالها المناصرين للحق "وأن ما يؤخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة" هي استجابة قائد ثائر لصرخة أخت عربية تستغيث وتستنجد به عذا الصوت الذي لم يذهب هباء في التربة بل سرعان ما جاء الرد بالقوة حفاظا على النهوة العربية وشهامتها.

من هذه اللوحة الشعرية الشيقة يؤكد الشاعر لنا أصالة ونسب البطولة العربية التي تمثل دفاعا عن الشرق العربي عامة، هذا الشرق الذي كان باب نصرته مفتوحا لكل مظلوم، كما أوحى لنا هذه اللوحة المشهدية إلى نقلة نوعية أبانت وأفصحت عن مقصدية الشاعر من خطابه التاريخي المحمول على عاتق سفينة هذه الشخصية التي أرسلت بدورها بعدا سياسيا واجتماعيا في الوقت نفسه.

فالأدب رثاء حال العرب العزتي في عبودية وحيرون المستعمر، وبعدا اجتماعيا لاضطراب تلك العلاقة بين العرب، وبين بني الوطن العربي الواحد في حد ذاته.

وكما أن توظيف البغدادي لم يكن عبثا وإنما أخذ هذا الاسم على عاتقه حمولة سفينة مفادها التعبير عن الانتماء الغربي المجيد بهويته، فلمس حينها دعوة ملحة مضمونها الاقتداء بسيرة هؤلاء الحكام والقادة العرب سواء على الصعيد السياسي والاجتماعي وفي قيادتهم للرعية، نعم هي تضحيات يشهدها التاريخ العربي وتسجلها الدواوين الشعرية.

*الأخت العربية:

كان للمرأة العربية حضور قوي حيث اتخذت أنساقا مختلفة جمعت فيها بين النسق التاريخي، والنسق الاجتماعي وحتى السياسي، وعبرت (الأخت العربية) عن تلاحق واجتماع هذه الأنساق وتوالدها الشقي داخل هذا الخطاب الشعري حين قال: "...حين دعت أخت عربية... وا معصماه" يحرص الشاعر على إثبات هذه المرأة فب تحديده لهويتها وانتماءها عندما نعت الأخت بلفظة عربية أو نحن لا نعجب من علاقة التبعية هذه بين اللفظتين، فكلاهما تحملان أبعاد النظر في لفظة "عربية".

فالحقيقة التي يقر بها الشاعر هو كل امرأة تحمل دم العروبة هي معنية بالدفاع والحماية والصون والرعاية حتى ولو كانت في أبعد بقعة من بقاع الأرض، فكذا حال هذه المرأة التي سجنّت في سجون الروم البعيدة، لكن النخوة العربية والشجاعة والأنفة لم تمنع هذا الحاكم أدمن إغاثتها وتحريرها من هذه العبودية وهذا الاغتصاب.

هذه الصرخة استوقفت الشاعر حينما استجاب المعتصم بالله استجابة فورية، وهي رسالة من الماضي الغربي المجيد يريد أن يبلغها للرجل الغربي الحديث والمعاصر الذي قد تنتهك محارمه أمامه وتظلم ولا يبدي أي استجابة، الأمر الذي يكشف لنا حرقه الشاعر ومرارته.

أما عن لفظة "أخت" وهي السبابة بالذكر فإنها تحمل أسمى معاني الإنسانية في جعل كل امرأة عربية على بقاع الأرض أختا تربطها بأخيها العربي قرابة الدم، ونزعة الحماية والرعاية، فقد ساق الشاعر هذه السفينة في قالب نسق القرابة الذي يحمل بعدا اجتماعيا لا بد من إثارة ثورة عارمة في حين تعرض لأي اغتصاب أو انتهاك، هذه الأخت العربية فما حال الأخت الحقيقية إذن، فما أحوالنا في هذا الزمن إلى هذه الغيرة العربية على الأخت العربية التي نفتقر إليها في زمننا هذا وأصبحت من العدم ان صح التعبير، حتى عنا العمد يشق نهديتها ولا تنور نائرة الرجل الغربي حيا لها، فعندما يصل القول إلى "والسيف المغمد في صدر الأخت العربية" فإن الأخت العربية حقا تطعن وتسلب حقوقها، وما زال الوضع مستمرا "فما زال شيق النهدين" عندها ضاعت الأمانة التي أوصى بها خير الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، والرجل الغربي وكل انتماءاته يقف مشدوها لا يحرك ساكنا اتجاه الوضع، إنه لأمر مؤسف، وإلى متى التغيير المنتظر.

من هذه الزاوية نلمس رسالة مضمرة تستجليها نسقية هذه الشخصية مفادها أن استنهاض الهمم واستقامتها لن يكون إلا على سنة الاقتداء بشهامة المعتصم بالله وأمثاله.

***أبو تمام الجد:**

ينقلنا الشاعر إلى المقطع الثالث من القصيدة من سلطة المعتصم بالله وقوته إلى سلطة الكلمة الشعرية التي قيلت في حق الرجل وخلدت نصره وبطولاته وتضحياته في سبيل العروبة ومجدها، هي ذاكرة تاريخية عبر الأجيال فلو لا كلمة أبي تمام لما علمنا شيئا من هذا المجد والعز والنصر، غير أن أبا تمام الشاب آنذاك ليس أبا تمام الجد الآن، فقد أصبحت هذه الذاكرة الشرقية في طي النسيان تجسيدا، لشقية تاريخية تسفر عن حزن أبي تمام الجد وهو يلتقي بأبنائه، فعندما نلغي صلاح عبد الصبور يقول:

في موعد تذكارك يا جدعان

يلقي الأبناء الأبناء

يتعاطون أفويق الأبناء

وأبو تمام الجد حزين لا يترنم

قد قال لنا ما لم نفهم

والسيف الصادق في الغمد طوبناه

وقوعنا بالكتب المروية

فإن الأمر ينبئ بخطورة وضع العرب، حتى غابت قريحة الشعر لدى أبي تمام وعزف في حزنه حيران أسفاً، وتحول شعره إلى شعر لا يفهم، هذا اللسان الغربي الذي خلد بطولات المعتصم بالله يتخذ الشاعر صلاح عبد الصبور من غيابه نسقا تاريخيا سيتحضر به حال العرب العاجز الضعيف الوهن، وكان الشاعر يؤكد على فكرة أن الأنباء ضيعوا أمانة جدهم الحزين، وأصبحت بطولات اجدادهم مجرد كتب مروية تقرأ ولا تفهم، تقرأ ولا تطبق، هي طريقة درامية تجسد حسرة صلاح عبد الصبور التي تترجم مفارقة بين ماضي العرب المجيد وحاضره التعيس وشتان بين ذاك وهذا، كما أن قصيدة الشاعر ليس أبا تمام في حد ذاته وإنما اتخذته مطية ليعود بذاكرتنا إلى ثورة المعتصم بالله ورباطة جأشه وقوته.

يواصل الشاعر الحديث عن شخصية أبي تمام الجدد، هذه الشخصية التي تغنت علم غائب منتظر معاصرا عن سبيل لغة فنية رامزة تنقلنا الدينية عميقة حزينة تدفعها الحسرة والألم عندما يقول (يومك لا يسقينا فرعا ويسقيك رضا).

- خلاصة:

- يعتبر محمد صلاح عبد الصبور رمزا من رموز الحداثة العربية إذ ترك آثارا شعرية متنوعة في أجيال متعدّدة.

إنّ ما وجدناه في قصيدة صلاح عبد الصبور ما هي إلا حقيقة تاريخية تفصل أحداث وقعة عمورية المشهورة فيوضح فيها الواقع المرير للأمة، وما أصابها من الهوان والعجز للدفاع عن شرفها

- قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، ديوانه، تقديم: عبد الحميد يونس، عبد الفتاح مصطفى، ميدان الأزهر، مصر.
2. أحمد يوسف، القراءة النسقية سلطة البنية ووهم الحايثة، الدار العربية للعلوم، دط، 2007.
3. صلاح عبد الصبور، ديوان صلاح عبد الصبور، دار العودة، بيروت، ط، دت
4. ضياء الكعبي، السرد العربي القديم، الأنساق الثقافية واشكالية التأويل.

5. عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، لبنان ، بيروت، ط3، 2005.

6. محمد مفتاح التشابه والاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1996.